Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإمام محمد أبو زهرة

خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم

المجلد الأول

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإمام محمد أبو زهرة

خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم

المجلد الأول

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجزء الأول

نشـأته ـ شـباب ـ بعثتـه

مصابرته المشركين ـ اتصـاله بالقبائل

هجرته « صلى الله عليه وسلم »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد رسول الله وخاتم النبيين

لله الحمد على ما أنعم ، وله الفضل فيما أكرم ، اذ أكمل الدين ، وأتم الرسالة الالهية ، بارسال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بالهـــدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، فأكمل الهداية ، وأبلغ الغاية ، وكشف المحجة، وبين الجادة، ورفع راية الاسلام القوى العزيز ، المكين، وحمل الحواريون من أصحابه ما حملهم الله ، فقاموا بواجب التبليغ ، وأدوا الأمانة التى حملوها ، فكانوا منارا مقتبسا من نوره ، فرضى عنهم ، ورحم الانسانية بما اقتبسوا من معانى الرسالة المحمدية ٠

يا رسول الله :

ان الله خلقك بشرا سويا ، ولكنك فوق سائر البشر ، وآثارك التى حملتها الأجيال من بعـــدك فوق القـــدر ، ونحن معشر المتبعين لك ان كان فينـــا شرف هذا الاتباع انما ندرك بالتصوير أمثالنا ٠ فمن خواطرنا ومنـــازع نفوسنا نتعرف نفوس غيرنا ٠ ونحكم على أحوالهم ، وان حاولنا أن ندرك من هو أعلى منا ، فانه يجب أن يكون علوه على مرأى أنظارنا ، وفى مطالع آفاقنا ، فعندئذ نحاول وقد نصل ، ولكنك يا رسول الله فى علو لا نصـــل اليه ، وفى سماك لا نراه ، وليس منا من يضاهئك حتى نتمثله ونتخيـــله ، فأنى لأمثالنا أن يكتب فى شأنك ، وأن يعلو الى شأوك ، ان ذلك أمر فوق المنال ، ويعلو على مدارك الخيال ٠

ومن أجل هذا نضرع الى الله أن ينالنا بغفرانه ، ان تسامينا محاولين الوصول الى الكتابة فيك ، فالمعذرة قائمة ، والقصور ثابت ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ٠

يا رسول الله :

قد كتبنا فى أئمة أعلام ، قد قبسوا من نورك قبسة أو قبسات ، أدركنا نورهم ، ووفقنا الله تعالى الى ما نحسب أننا وصلنا فيه الى ما يفيد ، وبمقدار ما قبسوا كنا ندرك ما به شرفوا ، وما به أصابوا ، واهتدوا ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فلما جئنا الى ساحتك ، وحاولنا أن ندخل اليها ، غمرنا النور ، وكف أبصارنا الضوء المنير ، فانى ندرك ، وأنى نرى ، وقد صرنا كذى رمد غمره ضوء الشمس ، أما ما هوأعلى ، فأصابتناالحيرة ، ولا هادى لنا يخرجنا منها ، الا أن تكون الهداية من الله تعالى كما أمر اذ قال سبحانه : « **قل ان الهدى هدى الله** » فليس لنا الا أن نلجأ اليه ضارعين أن يهدينا لتصوير شخصك الطاهر المطهر ، أو لتقريبه اذا كان التصوير فوق طاقتنا ، وأعلى من أن نصل اليه ، فان التقريب يحل عند العجز محل التسديد ، والعجز مغفور ، والقاصر معذور ، والله عفو غفور ٠

يا رسول الله :

اننا نكتب فى العظماء لنصور نواحى عظمتهم ، ولكل عظيم ناحية واحدة من نواحى العظمة ، فالاتجاه الى تلك الناحية هو مفتاح عظمته ، فتسهل معرفته ، ولكنك يا رسول الله فوق عظمة الأشخاص ، لأن وجوه عظمتك تعددت ، حتى يعجز المحصىعن الاحصاء ، والمستقرى عن الاستقراء ، واذا نفدت الطاقة أقر مطمئنا بعجزه ، ومؤمنا بأن وجودك فى هذا الوجود معجزة البشر ، فاذا كنت من البشر ، ولست فى كونك الا بشرا ، فلست الها ، ولست ملكا من الملائكة فانك فى مقام أعلى من سائر البشر ومن الملائكة ، صانك ربك ، وحفظك ورباك على عينه ، حتى كنت وحيدا بين الغلمان ، بما كلاك الله به وحماك ، وصبيا فريدا بين الصبيان ، وكنت الشاب الأمين عن رجس الجاهلية بين الشباب ، فكل شىء فى حياتك الأولى كان من الخوارق التى علت عن الأسباب والمسببات ، فلم تكن أثر تربية موجهة ، ولا أثر بيئة حاملة ، ولا أثر شرف رفيع ، وان كان محققا ، ولكنك كنت صنيع الله ، فكنت معجزة بشخصك وكونك ووجودك ، فيك البشرية ، وفيك المعجزة الالهية « **الله أعلم حيث يجعل رسالتك** » ٠

يا رسول الله يا خير البشر

كنت ذا الخلق القوى ، والسياسى الحكيم ، والقائد العظيم ، والحاكم الرفيق ، والمربى لأمتك بالشورى ، والوحى ينزل اليك ، وكنت الرءوف بأمتك ، والمحارب الرحيم ، وحامل لواء السلام فى مرحمة النبى ، وعزة القوى ، أنشأت جماعة مؤمنة ابتدأت بها بذرا صالحا ، وأخذ ينمو فى بيئتك الطاهرة ، مختفيا فى خلايا الايمان ، حتى أخرج شطأه ، فظهر متعرضا لمقاومة الحدثان ٠ قويا فى تكوينه ، حتى استغلظ واستوى على سوقه ، وصار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قوة الحق فى الأرض ، وكنت كما قال الله تعالى : « **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بم الكفار** » وكل ذلك بتوجيه ربك ، والهام نفسك ، وعلو فكرك ، وقوة قلبك ، فمن أى ناحية يدرس حياتك الدارس ، وقد كان كل شىء فيك قويا عظيما ، كما قال فيك ربك « **وانك لعلى خلق عظيم** » ·

اللهم ربى ، ولا خالق سواك ، ولا اله غيرك ، وليس كمثلك شىء ، وأنت السميع البصير ، خلقت محمدا من البشر ، وجعلته سيد البشر ، وأرسلته رحمة للعالمين ، واذا كان وجوده وما أحاط به خارقا للأسباب والمسببات فقد أرسلته بمعجزة لا تزال تتحدى الخليقة الى يوم الدين ·

ربى العظيم :

لقد تطاولت فاعتزمت أن أكتب فى سيرة نبيك وخاتم أنبيائك محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاغفرلى يارب ذلك التطاول ، انك أنت الغفور الرحيم ، وأمدنى بعونك وتوفيقك فى هذا المقام الذى يعلو عن طاقتى ، وتعجز فيه قدرتى ان لم يكن منك العون ·

رب لا تخزنى ، فانه لا قدرة لى الا بتوفيقك ، ولك الفضل ، والمن ، « **وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب** » ·

وانى قد اتجهت الى القصد فى القول ، فمهما يكن الاطناب ، فانه لا يصل الى الغاية ولا يبلغ الشأو ، ولذلك اجتهدنا فيما هو تحت سلطان قدرتنا ، ومع ذلك استطال بنا القول ، وان لم ندرك النهاية ، فهى فوق قدرة عاجز مثلى ، ولقد قسمت الكتاب الى ثلاثة أقسام :

أولها ـ ذكر حياة النبى صلى الله عليه وسلم من ولادته التى حاطتها الخوارق ، وحياته التى كانت كلها ارهاصات بالنبوة ، حتى بعثه الله تعالى بشرا رسولا ، وأوذى هو وحواريوه فى الله ، وصبر وصابر ، حتى كانت الهجرة التى أنشئت بها مدينة الاسلام ، ودولة الايمان ·

والثانى ـ فى جهاده ، وقمع الشرك ، وفتح الطريق للدعوة المحمدية ، وازالة الحاجزات من طغيان الظالمين ، وفتنة المؤمنين ، حتى تسير الدعوة فى طريقها من غير عوج ، وفى طريق معبد لا يحاجزه الشر ، ولا يدعثره

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الايذاء ، وان هذا القسم ينتهى بصلح الحديبية ، حيث يئس الشرك من أن ينال من أهل الايمان ، وعجز عن أن يغزو المؤمنين ، وصارت الكلمة العليـــا فى الجزيرة العربية للايمان ، وسارت الدعوة فى كل مسار ٠

والقسم الثالث من بعد الحديبية،وفيه تجرد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لليهود الذين كانوا شوكة فى جنب العرب ، وأخذ الاسلام يعم جزيرة العرب ، ويخرج الى أقطار الأرض ، فكانت مؤتة ، وكان الفتح العظيم الـــذى يئس فيه الشيطان أن يعبد فى هذه الأرض ، وأخذ الاسلام يغزو ما حول العرب بكتب النبى ورسله ، وبالسرايا يبثها ، وبالخروج الى الروم الذين قتـــلوا المؤمنين من أهل الشام فى أرضهم ، فكان لابد من تأمين الدعوة ، وازالة الفتنة، وهذا القسم ينتهى برحلة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من هذه الدنيا بروحه الى السموات العلا ٠

اللهم انفعنا بهديه ، واهدنا سبله ، انك تهدى من تشاء ، وانك على كل شىء قدير ٠

محمد أبو زهرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمهيـــــد

الاضطراب الفكرى :

١ — فى القرن الخامس الميلادى وما يليه ، كان العالم الانسانى يموج بالشر ، وتضطرب النفوس ، واستحكمت الأهواء ، وتفرق بنو الانســـان ، حتى صار القانون السائد المسيطر ، الحق هو القوة ، والقوة هى الحق ، فشاهت الأفكار ، وتقطعت الأسباب • وصار ابن آدم ينقض ما أبرمته الفطرة ويحل الرابطة الانسانية الجامعة ، وعجز العقل عن أن يحكم ما بين الناس ، بل انه اتخذ العقل مطية لتبرير الباطل ، وتزييف الحق ، والعبث بالميراث الانسانى للنبيين من بعد ابراهيم موسى وعيسى ، وشوهت المفاسد ، تعاليم موسى وعيسى ، وغيرهم من الأنبياء المرسلين ، فالنصارى قد استسلموا لحكم الامبراطرة ، وزكوه ، بل أيدوه ، وتفرقوا ، وصار بأسهم بينهم شـــديدا ، وأغرى الله سبحانه وتعالى بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيـــامة • فالملكنيون تحكموا فى اليعقوبيين ، حتى نفروا منهم •

واليهود شوهوا تعـــاليم موسى عليه الســـلام فضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وصاروا مع فساد قلوبهم ، لا وجود لهم الا بمعونة قوى يريد أن يكون غالبا لهم ولغيرهم وتسربلوا سربال العداوة لبنى الانسان جميعـــا ، اذ يعطون لأنفسهم من الصفات العقليـــة ، والمزايا الدينية ما ليس فيهـــم وينكرونه فى غيرهم ، حتى زعموا انهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم شعب الله المختار ، وزعموا لغيرهم المنزلة الدون ، وكانوا يقولون عن العـــرب الذين نكبوا بمعاشرتهم « **ما علينا فى الأميين سبيل** » ، فهم يأخذون منهم بالحـــق والباطل ولا يعطونه شيئا لأنه لا سبيل لهم بحق ، ولا بغيره •

٢ — وكان الأقربون والأبعدون ، والقاصون والدانون فى اضطراب فكرى ، وعجز العقل البشرى عن أن يحل مشاكل هذا الموجود • فتـــاه العقل فى معرفة أصل الوجود ، ولم تستطع الفلسفة الأيونية أن تحل مشكلة أصل الوجود ، ولا أن تصل الى منشئه ، مما أثبت أن العقل مهما يؤت لا يستطيع أن يفسر سر الظواهر ، فهو يعرف مظاهر الأشياء ، ولا يعرف الأسرار المستكنة الباعثة ، يعرف مظاهر الحرارة والكهرباء ولا يمكن أن يعرف ما يحركها ، الا اذا اتجه الى معرفة المؤثر من الأثر ، والمنشىء مما أنشأ ، ولكنه وقد غمـــر بالمحسوسات ، ومظاهر القوى ، دون أن يعرف مصدرها ، عمى عن الأصل ، وشغل بالفرع ، فتاه فى هذه السماء ، وصار فى عمياء ، لا يعرف المبتدأ ، وان عرف مظاهره •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومع ظهور الأديان السماوية ، واختتامها بالاسلام لا يزال العقل ، وهو مأسور بما يحس ، لا يعرف ما وراء المحسوس ، وكل ما تراه من سيطرة العقل ونفاذه لا يتجاوز المظاهر واستخدامها ، وهو يجهل باعثها ، ولا يعرف منشئها الا اذا كان ينفذ من المظهر الى المنشأ المكون ٠

وانه لا يمكن معرفة الكون على حقيقته الا بالايمان بمن أنشأه ، وان الأديان السماوية تدعو الى معرفة المنشىء مما أنشأه ، ومعرفة الخالق من المخلوق ، فهى تدعو الى دراسة الخلق لمعرفة من أنشأه تدعو الى دراسة الكون ، وتعرف مظاهره لمعرفة من وراء هذه المظاهر ، ولم يكن ذلك شأن الدارسين للكون فى الماضى ، ولا من يدرسون مظاهره المجردة فى الحاضر ، وانما يهمنا الماضى الذى كان قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، وما كان عليه الوجود ٠

٣ ـ تلك كانت حال العقيدة فى الفلسفة الأيونية ، والفلسفة اليونانية التى ورثتها ، ولما جاء سقراط زعيم هذه المدرسة وكبيرها ، أراد أن ينزل بالفلسفة من السماء الى الانسان ، ودعا الى ترك البحث عما وراء الطبيعة ومظاهرها ، الى الانسان ، وأراد أن يعمل ما يجدى وما ينفع فى السلوك الانسانى ، بدل أن يهيم فيما وراء الطبيعة من غير هاد يهدى ، ولا رشد يرشد ٠

اخذ يدرس نظام التعامل الانسانى ، ومقياس الفضيلة الذى يميزها عن الرذيلة ، ليميز به الحق من الباطل ، وخطأ السلوك واستقامته ليعرف ما هو فاسد وما هو صالح ٠

ودعا الى ذلك ، واختلف هو وتلاميذه ، فمن قائل ان القياس هو المعرفة وهو ما اختاره سقراط ، ومن قائل انه الحكمة والعدالة والشجاعة والعفة والفضائل ، كلها ترجع الى هذه العناصر ، وقد اختار ذلك أفلاطون ، ومن قائل انه اللذة أو المنفعة ، فما هو نافع ، ولو نفعا شخصيا خير ، وما لا نفع فيه فهو شر ، ومن قائل ان الخير وسط بين رذيلتين ٠

وهكذا كانت المتاهات العقلية فى ادراك أسس التعامل الانسانى ، كالحيرة فى معرفة العقيدة الصحيحة ، فالعقل لم يستطع أن يصل الى قانون التعامل المستقيم ، كما لم يصل الى ادراك سر الوجود ، بل كان يهيم فى نظريات من غير أن يصل الى حقائق ثابتة ٠

وفى وسط ذلك الديجور ظهرت السوفسطائية التى تشكك فى حقائق الوجود ، فمنهم من أنكرها ، ومنهم من شك فى كل شىء ، ومنهم من قال ان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحق فى الأشياء هو ما يعتقده كل امرىء فى ذات نفسه ، وتسمى العندية ، فليس للأشياء حقيقة ، وانما الأمر فيها الى اعتقاد وجودها ٠

وهكذا كان الضلال المبين بسبب الاعتماد على العقل المجرد فى وسط تلك الفلسفة التى لا تهد ، بل يضل فيها الفكر ، كما يضل السارى فى ظلمات الليل ٠

المجوسية :

٤ ــ ولو غادرنا اليونان ومن سبقوهم الى الفرس ومن وراءهم فانا واجدون عجبا ، فانا نجد بجوار الفلسفة اليونانية التى سرت اليهم فلسفة أخرى ، أرادت أن تنظم التعامل الانسانى وتحل مشكلة أصل الوجود بأوهام توهموها ، وأساطير اكتسبوها فكانت الزرادشتية التى تفرض أن الوجود له الهان اله الخير واله الشر ، وأن كليهما يتنازع النفس الانسانية والكون وما فيه ٠

وان هذا بلا ريب باطل لا أصل له من دين ، ولكن قد يقال انه تحريف لدين سماوى ، كان يدعو لعبادة الله تعالى وحده ولا مانع من ذلك عقلا ، وقد وجد فى بعض كتب ذلك بقايا تبشر بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وقد قال تعالى : « **وان من أمة الا خلا فيها نذير** »

ولكن نجد بجوار ذلك مذهبا اجتماعيا خطيرا يدعو الى القوة ، وانه لا عبرة بالضعفاء ، وانهم لا يصلحون للبقاء ، فالحق مع القوى دائما، والباطل مع الضعيف دائما ، فقانون الحياة يعمل للأقوياء على الضعفاء ، ويجب أن يبقى الأقوياء ، وأن يفنى الضعفاء ، فلا ايمان بالعدل ، وانما الايمان بالقوة ٠

المانوية :

٥ ــ ثم كان بفارس أيضا مذهب يحسب أن الوجود الانسانى كله شر يجب ألا يبقى ، بل يجب العمل على افناء الانسان ، وهو مذهب (مانى) وعقيدته تسمى المانوية ، فهو مذهب يدعو الى الفناء ، ولذلك يمنع الزواج ، حتى لا يكون تناسل ، وينتهى ذلك الانسان الذى اعتبر وجوده لعنة فى الأرض ، وما دام الانسان فى الانسال مستمرا ، فان اللعنة الانسانية مستمرة ، وكأنه يحسب انه نزل الى الأرض بخطأ ارتكبه أبوه ، فالخطيئة باقية بوجوده ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المزدكية :

٦ ــ وبعد ذلك جاء المذهب المخرب ، كان مذهب آخر يحل الوحدة الانسانية ، والعلاقة الفاضلة ، وهو مذهب مزدك الــذى انتشر فى فارس ، وأساسه اباحة النساء ، فلا زواج ولا ارتباط ، بل يسافد الانسان كما يسافد الحيوان من غير أى قيد من رابطة حافظة للأنساب ، وراعية للطفولة المقبلة ، كما أباح الأموال ، فلا ملكية تحمى انسانا من انسان ، بل كل الأموال مباحة للجميع من غير أى نظام ، فهو يمنع القيود فيها كما يمنع القيود فى النساء ٠

وجملة هذا المذهب أنه يبيح الانطلاق من كل قيد ، كما أن الحيــوان فى البادية أو الغابة منطلق ، لا يقيد الا بقــوة غير التى ترسم له حــدا لا يتعداه ٠

والوهم الذى قام عليــه ذلك المذهب أنه زعم أن الشحناء والبغضــاء تتوالدان من احتياز النساء بالزواج أو نحوه ، واحتياز المال بالملكية ، ويحسب أنه اذا زالت روابط الزوجية ، وزالت الملكية للأموال يكون الناس فى سلام دون خصام ، ويا ليته اعتبر الانسان كالحيوان لأنه مع زوال الملكية والعقود الرابطة للعلاقة بين الذكر والأنثى فى الحيوان لم تزل القوة الغالبة والافتراس بين الحيوانات المتحدة فى الجنس والأرومة والمختلفة ٠

ومهما يكن فقد انتشر ذلك المذهب فى فارس ، وضاعت الأنساب ، واعتنقه بعض الأكاسرة ، وساد وسار مدة حكم هذا الكسرى ٠

ولكن زال ملكه ، قبيل مبعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانظر كيف تأذى بهم ما سموه حكم العقل ٠

البرهمــة :

٧ ــ ولو أننا تجاوزنا فارس الى ما وراءها من أرض المشرق ، فــانا واجدون الهند ، وما فيها ، وهنالك نجد ديانة تقوم على التفرقة الانســانية بين طبقات ، فالناس ليسوا سواء ، فى الحقوق والواجبات ، بل يقرر دين البراهمة التفرقة بين الناس من حيث العبادة والزلفى لبراهما ، الههم الأكبر فقد انقسم الناس من حيث مهنهم التى تتوارث ، والتى تصير المهنة عنــدهم أصــلا نسبيا ينتقل من الأصول الى الفروع ، ومن الفــروع الى فروعهم ، فقسموا الى أربع طبقات :

فالطبقة الأولى : هى أعلاها ، وهى طبقة البراهمة ، وهم رجال الدين الذين يبينون أحكامه ويزعمون أنهم خلقوا من رأس الههم (براهما) ولذلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانوا أعلى الناس ، لأنهم خلقوا من أعلى الاله ، وهم فى زعمهم خلاصة الجنس البشرى ، وعقله المتفكر ، ورأسه المدبر ، لأن الرأس عنوان ذلك كله ، فهم علاوة الجسم ٠

والطبقة الثانية : طبقة الجند ، ويزعمون أنهم خلقوا من مناكب الههم براهما ٠ ويديه ، وهم لهذا الحماة والغزاة وموطن القوة ٠ ومرتبتهم دون مرتبة البراهمة ، وهى تليهم مباشرة ٠

والطبقة الثالثة : طبقة الزراع والتجار ، وهم مخلوقون من ركبتى الههم، والمسافة بينهم وبين الطبقة السابقة لها كبيرة ، وهى قريبة من الطبقة التى تليها مباشرة لتقاربهما فى التكوين والخلق ٠

والطبقة الرابعة : طبقة الخدم والرقيق ، وهؤلاء خلقوا فيما يزعمون من قدمى الههم فهم أحط الطبقات ، وأبعدها ، لأنها البعيدة عن رأس (براهما) ٠

وهناك دون هذه الطبقات طبقة أبناء الزنى والمحرومين أو المنبوذين ، والذين يتناولون الأعمال الحقيرة فى المدن ، ويسمون من ليسوا من الهنود (ابليج) ومعناها أنجاس ، فكل من ليس هنديا نجس ، ، ويلحق بتلك الطبقة من المنبوذين ٠

ونجاسة أولئك ليست نجاسة معنوية فقط ، بل هى نجاسة حسية فى زعمهم ، حتى ان الأجنبى لو شرب من كوب ماء حطموه ، وألقوا بحطامه فى الأرض ٠

ويلاحظ فى هذه الطبقات أنها تتوارث ، فلا يرتقى ابن طبقة الى أعلى منها ، ولا ينحدر من هو فى الأعلى الى الأدنى ٠

والفضائل تتفاوت بتفاوت الطبقات ، ففضائل البرهمى أن يكون وافر العقل ساكن القلب صادق اللهجة ظاهر الاحتمال ضابطا لنفسه ، مقيما للعدل بادى النظافة ، مقبلا على العبادة ، مصروف الهمة الى التدين ٠

ويجب أن يكون الجندى مهيبا شجاعا ، ذلق اللسان ، سمح اليد ، غير مبال بالشدائد ، حريصا على لقاء الخطوب ، وتيسيرها ٠

ويجب أن يكون الزراع والتجار عاكفين عليها ، يرعى الزراع شئون السوائم وتربيتها ويقوم التاجر بشئون التجارة ، ومعرفة الأسواق ، وماتتقاضاه الخبرة من صفق فى البياعات والتمرس بشئونها وتعرف أحوالها ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويجب أن يكون الخدم والأسارى والأنجاس مجتهدين فى الخـدمة ، والتحبب الى الناس ، لأن ذلك أليق بما ينبغى أن يكونوا عليه من آداب ، وهذا الذى يتفق مع أعمالهم فى الجماعات ٠

ويقول أبو الريحان البيرونى فى كتابه ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة بعد بيان الطبقات ما نصه : « وكل من هؤلاء اذا ثبت على رسمه وعادته نال الخير فى ارادته اذا كان غير مقصر فى عبادته غير ناس فى جل أعماله ، واذا انتقل عما عهد اليه الى ما عهد الى طبقة أخـرى ـ كان آثما بالتعدى » ٠

هذه نظم وعبادة فيها وثنية ، واذا ضربنا صفحا عن الوثنية فيهـا واتجهنا الى النظم العملية ، فعجب كيف يقبل شـعب مهما تكن درجـة التفكير فيه تلك الطبقية المقنية ، ويسير عليها على دين واجب الطاعة ، ومن أجل هذه الطبقة كان التأخر النفسى والاجتماعى ٠

هل للبرهمية أصل سماوى :

٨ ـ لا شك أنه لا يوجد فى دين سماوى التفرقة الطبقية التى يعتبرها البراهمة فى القديم فى ضمن دينهم الذى انتشر بها قبل المسيح، ولاتزال بقاياها قائمة ، وان خفت حدتها بفعل الزمان ، وبطبيعة الاتصالات الانسانية العامة ، وشيوع فكرة المساواة بين الناس علما ، وان كان العمل لا يزال يتخاذل عن تعميم المساواة بين الناس بحكم الخضوع المزعوم لقضايا العقل الذى يحسبون أنهم يطبقونه ٠

ولكن يفيد كلام أبى الريحان البيرونى أن احتمال أن يكون لأصـل البرهمية رسالة سماوية ، ويرجح هذا الاحتمال بدليلين ينشأ عنهما ، وبهما يكون احتمالا ناشئا عن دليل ، ولمثل هذا الاحتمال قوة فى الاستدلال ٠

أولهما : أن الرسل المذكورين فى التوراة والقرآن ليسوا هم الرسـل وحدهم ، بل يوجد غيرهم ، فقد قال تعالى : « **منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك** » ويقول سبحانه وتعالى : « **وان من أمـة الا خلا فيهـا نذير** » فوجود ديانة سماوية بين الهند الذين كانت فيها ثقافة وادراك أمـر راجح ، بل أمر يقارب المقطوع به بمقتضى النصوص القرآنية ٠

ثانيهما : ما يذكره أبو الريحان البيرونى فى كتابه « ما للهند من مقولة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقبولة فى العقل أو مرذولة » من أن خواص الهنود موحدون ، وأن عوامهم هم الذين دخلت الوثنية فى مزاعمهم ، فهو يقول فى هذا المقام :

« اعتقاد الهند فى الله سبحانه وتعالى أنه الواحد الأزلي ، من غير ابتداء ولا انتهاء ، المختار فى فعله القادر الحكيم المحيى المدبر المنفرد فى ملكوته عن الأضداد ، لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء ، ولنورد لك شيئا من كتبهم لئلا تكون حكايتنا كالشيء المسموع فقط : « قال السائل فى كتاب يا تنجل : من هذا المعبود القوى ؟ قال المجيب : هو المستعلى بأزليته ووحدانيته عن فعل لمكافأة عليه براحة تؤمل وترتجى ، أو شدة تخاف وتتقى ، والبرىء من الأفكار ، لتعاليه عن الأضداد المكروهة ، والأنداد المحبوبة ، والعالم بذاته سرمدا ، اذ العلم الطارىء يكون لما لم يكن بمعلوم ، وليس الجهل بحجة عليهفى وقت ما أو حال ٠

ثم يقول السائل بعد ذلك ، فهل له من صفات غير ما ذكرت ، فيقول المجيب : العلو التام فى القدر لا فى المكان ، فانه يجل عن التمكن ، وهو الخير المحض التام ، وهو العلم الخالص عن دنس الهوى والجهل ، قال السائل : أفتصنعه بالكلام أم لا ٠ قال المجيب : اذا كان عالما فهو لا محالة متكلم ٠٠ قال السائل : فاذا كان متكلما لأجل علمه ، فما الفرق بينه وبين العلماء الذين تكلموا من أجل علومهم ٠.قال المجيب : الفرق بينهم وبينه هو الزمان ، فانهم تعلموا فيه وتكلموا بعد أن لم يكونوا عالمين ولا متكلمين ، ونقلوا بالكلام علومهم الى غيرهم ، فكلامهم وافادتهم فى زمان ، اذ ليس للأمور الأزلية بالزمان اتصال ، فالله سبحانه وتعالى عالم متكلم فى الأزل ، وهو الذى كلم براهم ، وغيره من الأوائل على أشكال شتى ، فمنهم من ألقى اليه كتابا ،ومنهم من فتح الواسطة بابا ، ومنهم من أوحى اليه ،فقال.بالفكر ماأفاض عليه ٠ قال السائل : فمن أين هذا العلم : قال المجيب علمه على حاله فى الأزل، واذ لم يجهل قط فذاته عالمة ، لم تكتنب علما لم يكن له ، كما قال فى بيذ الذى أنزل على براهما : احمدوا وامدحوا من تكلم ببيذ ، وكان قبل بيذ ٠ قال السائل كيف نعبد من لم يلحقه الاحساس ؟ قال المجيب تسميته تثبت آينته ، فالخبر لا يكون الا عن شيء ٠٠٠ والاسم لا يكون الا لمسمى ، وهو ان غاب عن الحواس فلم تدركه ، فقد عقلته النفس ، وأحاطت بصفاته الفكرة وهذه هى عبادته الخالصة » ٠

هذه نقول البيرونى فى كتابه عن الكتب المقدسة الهندية ، وهو يدل على ثلاثة أمور :

أولها : أن هذه الكتب تدل على وحدانية الله سبحانه وتعالى ، وتنزهه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن مشابهة الحوادث ، فهو ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير العالم المتكلم ، والمتصف بكل كمال ، لا يتلاقى فيه مع صفات أحد من البشر،فوحدانيته سبحانه وتعالى فى الخلق والتكوين ، وصفاته العلية ، وخلوصه سبحانه بالعبودية لا ريب فيها فى كتب البرهمية الأصيلة ٠

الأمر الثانى : أن الرسل جاءت اليهم ، وقد ذكر أن النصوص الدينية فى التوراة والانجيل والقرآن ، لا تمنع ذلك بل انها تؤيده ، كما تكون من الآيات الكريمات ٠

وان برهما ــ لم يكن الها ، ولا شيء فيه من الألوهية الا أنه كان رسولا من عند الله تعالى ٠ والعبارات التى نقلها لنا البيرونى من كتبهم صريحة فى ذلك صراحة مطلقة ٠

الأمر الثالث : أن هناك كتابا منزلا تلقاه براهما من ربه ، من غير نظر الى كون ذلك الكتاب حرف فيه الكلم عن مواضعه كما حدث للتوراة والانجيل ، أم لم يحرف ، والراجح أنه حرف لتقادم العهد ، بدليل أنه وجد عندهم تشبيه ونحل لابراهما وصف فيها بالاله ، لا وصف الرسول عند عامتهم ٠

كتبهم :

٩ ــ للبراهمة كتب كما دلت على ذلك عبارات البيرونى ، وأقدم ما عرف من كتبهم الفيدا ، ولم يعرف المؤرخون عصره على وجه التحقيق والضبط ، وأقصى ما تأكد لديهم أن الفيدا كانت موجودة قبل القرن الخامس عشر قبل ميلاد المسيح عليه السلام ، فقد كانت مع الفاتحين الآريين على أنها من أصول ديانتهم ٠

والفيدا مجموعة من الأشعار ليس فى كلام الناس ما يماثلها فى نظرهم، ويقول جماهيرهم : « ان البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها ، ويقول البيرونى ان خاصتهم يقولون ان فى مقدورهم أن يأتوا بمثلها ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراما لها » ولم يبين البيرونى وجه المنع : أهو منع بمعنى التحريم ، بمعنى أن فى استطاعتهم أن يأتوا بمثلها ويتجهوا الى ذلك ، ولكنهم كلفوا الا يأتوا أم أن هذا المنع انما هو صرف لهم عن أن يأتوا بمثلها ، فهم قادرون على أن يأتوا، ولكنهم صرفوا عنذلك كما يقول بعض الجهلاء فاعجاز القرآن منحرفين فى دينهم ، لم يبين لنا البيرونى أى الوجهين أراد بالمنع ؟ لئن أراد الأول ، وهو منع بالتحريم وذلك لا يقتضى الامتناع ، فقد يكون من بعض المكلفين من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعصى ، فيأتى بمثلها · أو يزيد عليها ، لأن الناس ليســـوا معصومين عن المخالفة ولا أحد من البراهمة يعتقد جواز وجود أمثالها ، ولذلك نرجح أن يكون الامتناع فى زعمهم يصرفه ، ونكتفى من الاشارة الى كتبهم بهذا القدر ·

البـــوذية :

١٠ ــــ بعد أن حرفت البرهمية وجعل الناس فى عقيدتها طبقات كان لابد أن يكون من بينهم من يغير ، ولا يرضى بهذه الطبقـــات · ولذلك ظهـــر من بينهم من لا يرضى ، وهو من رجال الطبقة الأولى ، وبلغ أقصى الغـــاية فيها ، وهو بوذا الذى ولد سنة ٥٦٠ قبل المسيح عليه السلام ، وكانت دعاية بوذا تخفيف ويلات الانسانية التى أرهقها نظام الطبقات ·

ولقد اتجه فى سبيل تخفيف ويلات الانســـانية الى الدعوة لتخفيف الحاجات وكف النفس عن الشهوات ، وهذه الشهوات هى التى تشقى ، فاذا كانت ويلات الناس تجىء اليهم من ناحية أهوائهم وشهواتهم ، واتســـاع مطالبهم ، والرغبة فى المزيد منها ، فان تخفيف ويلات الحياة يكون بتربية النفس على الاستغناء عن أكثر مطالبها،والاكتفاء بالقليل ومجانبة الأهواء والشهوات، فانها هى التى تجعل النفس طلعة ، تحب اللذائذ وان كانت عاقبتها سيئة ، فكان من الواجب السيطرة على الأهواء ·

وقد وضع منهاجا للتربية النفسية ، الخط الأول منه يبدأ باجتناب الأهواء، والاتجاه الى الأمور بقلب سليم منها ، فان النفس تشرق ، ويكون ادراكهـــا سليما ، ثم يكون من بعد ذلك الاعتقاد سليما ، ومن بعد الادراك يكون النطق الصادق ، ثم العمل القويم ، ثم السلوك الحسن ، ثم الجماعة التى تقوم على الأخلاق ·

ويقرر مبادىء خلقية ، فهو يقول فى النهى عن أمور عشرة :

١ ــ لا تقتل أحدا ·

٢ ــ لا تسرق ولا تغضب ، ولا تأخذ مالا لم يقدم اليك ·

٣ ــ لا تكذب ، ولا تقل قولا غير صحيح ·

٤ ــ لا تشرب خمرا ، ولا تتناول مخدرا ·

٥ ــ لا تزن ولا تأت بأى أمر يتصل بالحياة الجنسية يكون محرما ·

٦ ــ لا تأكل طعاما لم ينضج ·

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٧ ـ لا تتخذ طيبا ، ولا تكلل رأسك بالزهر ٠

٨ ـ لا ترقص ، ولا تحضر مرقصا ، ولا حفل غناء ٠

٩ ـ لا تقتن فراشا وثيرا ، فلا تقتن أرائك وطنافس ، ولا وسائد ولا حشايا رافهة ٠

١٠ ـ لا تأخذ ذهبا ولا فضة ٠

وان هذه المبادىء البوذية فيها عيب ، وهى ناقصة ٠

أما عيبها ، فانها لا تعتمد على عقيدة موجهة ، بل يروج عن بوذا أنه أنكر أن يكون ثمة اله منشىء للوجود ، ولهذا شاعت عبادة الأوثان فيمن جاءوا بعد ، فلم تنق قلوبهم ، لأنه لم تسلم عقيدتهم ، وكانت وهما من الأوهام ضل فيها العقل ، ولم يهتد الى سواء السبيل ٠

ويضاف الى هذا عيب آخر ، وهى أنها تزهد فى الحياة ، وتمنع الانتفاع بخيراتها ، فكأنما مباهج هذه الحياة ، انما خلقت لكى ترى وتشاق النفوس لها ، ثم تحرم على الانسان ٠

وأما النقص فلأن فضائلها سلبية ، هى نهى لا طلب ، ومنع لا التزام ، فالخير فيها لا يطالب فيها ، ولكن يتجنب الشر ٠

ان الفضائل الانسانية تتكون من عنصرين ، عنصر ايجابى ، وهو تقديم النفع الانسانى والقيام بحق الانسان على أخيه الانسان ، والاتصال بالتعاون بين الناس بعضهم مع بعض ، وذلك هو العنصر القوى فى الفضيلة ، والعنصر الثانى الامتناع عن الايذاء وهذا هو العنصر السلبى، وهو الأدنى، والأول هو اللباب ، وهو الخير الحقيقى ، بل انه يمنع غيره ، فان النفع يمنع بعض الأذى ، فاذا اقتصرت البوذية على السلب نقص معنى الكمال فيها ٠

وان تكاليف البوذية قد يستطيع تنفيذها الخواص ، ولا يمكن أن يكون تنفيذها عاما ، والمذاهب لا يلاحظ فى تطبيقها الخاصة ، بل لابد أن يكون تطبيقها عاما ، وهى كالمذاهب الصوفية يطبقها الشيوخ ، ويقاربهم المريدون ، ولا يمكن أن تكون نظاما عاما يطبقه الجميع ٠

ولهذا لم يطبقها الجميع ، بل انقسم البوذيون أنفسهم الى قسمين :

(أحدهما) البوذيون الذين أخذوا أنفسهم بالتعاليم السابقة لا يحيدون